الفصل الثالث

المُسْتَقْبَليّة عند صحابة رسول اللّه ﷺ

عند دراسة المستقبلية الاستراتيجية عند المسلمين بعد رسول الله ﷺ تبرز الفترة التي عاشها صحابته- رضوان الله عليهم- وكيف حملوا لواء الاسلام، واندفعوا يجوبون العالم شرقا وغربا ويخططون في نفس الوقت لمستقبل الإسلام، ويضعون الأسس القوية لذلك.

وفضل الصحابة وفكرهم المستقبلي لا يمكن أن يُحصْى عن طريق هذه الدراسة التي ترتكز على الخطوط العامة للمستقبلية عند المسلمين. ولذلك ستتجه الدراسة إلى دراسة المستقبلية عند الخلفاء الراشدين، ومن خلالها سوف تبرز صورة المستقبلية واضحة بعد رسول الله ﷺ، وسوف يتضح لنا أنها ليست نهجا زمنيا ولكنها سلوك إسلامي تتحقق من خلاله رسالة الإسلام في الإرشاد والهداية، ورسالة الإنسان في الخلافة والعمارة.

١-أبو بكر الصديق، رضي اللّه عنه:

عندما تولى الخلافة واجه عدة مشاكل تصفها السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها بقولها: «لما تُوُفِّي رسول الله ﷺ اشرأب النفاق وارتدت العرب، وانحازت الأنصار فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، فما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بفنائها وفضلها».[١]

هذه الكلمات على قلتها وإيجازها توضح الحالة العامة التي كانت عليها جماعة المسلمين عند تولي أبي بكر الصديق- رضي الله تعالى عنه- ولكنه مع هذا نجده قد

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء. ص ٧٣- ط مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

تصدى لكل مشكلة وعالجها في ضوء الرؤية المستقبلية وربط بينها برباط المستقبلية المدروس، فغير مشكلة الارتداد، كانت هناك مشكلة إنفاذ جيش «أسامة» الذي أمر بإنفاذه رسول الله ﷺ، وسنبدأ بهذه المشكلة لنرى كيف كانت تُدَار دولة الإسلام بوعي مستقبلي «استراتيجي» جعلها تتفوق على خصومها، وتثبت أقدامها في الأرض بعد فترة وجيزة من انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

إنفاذ جيش أسامة:

جهَز رسول الله ﷺ جيشا وجعل قيادته لأسامة بن زيد، للتوجه إلى الشام، ثم تُوُفِّي ﷺ وجيش أسامة خارج المدينة ينتظر الأمر بالتحرك إلى مبتغاه.

ونترك لابن الأثير تصوير الجو العام للمدينة وللصحابة، وكيف كان خلافهم على الرؤية المستقبلية، وكيف كانت رؤية أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، هي التي تؤسس للمستقبل بميزان دقيق، يقول ابن الأثير:

فتُوُفِّي النبي ﷺ ولم يسر الجيش، وارتدت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة، وظهر النفاق واشرأبت اليهود والنصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم. فقال الناس لأبي بكر: إن هؤلاء- يعنون جيش أسامة- جند المسلمين - والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ، فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة لمعسكره بالجرف، فخرجوا كما أمرهم، وجيش أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل.

فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا، أرسل أسامة عمر ابن الخطاب وكان معه في جيشه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال:

«إن معي وجوه الناس وحدهم، ولا آمن على خليفة رسول الله ﷺ والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب: إن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ فإن أبى إلا أن نمضي فأبلغه عنا واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلا أقدم سنا من أسامة». فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فأخبره بما قال أسامة فقال: لو خطفتني الكلاب والذئاب أنفذنه كما أمر به رسول الله ﷺ، ولا أرد قضاء قضى به ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته». قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: فإن الأنصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة؟ فوثب أبو بكر، وكان جالسا، وأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم، وأشخصهم وشيعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن- فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ إلا أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله سبحانه وتعالى فإنه للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تُكْتَب له وسبعمائة درجة تَرْفع له وسبعمائة سيئة تُمْحَى عنه.

فلما أراد أن يرجع قال لأسامة: إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل، فأَذِنَ له، ثم وصاهم (أبو بكر) فقال:

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا

شاة ولا بقرة ولا بعيرا (إلا لمأكلة)، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى.

وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ فسار وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد، وكانت غيبته أربعين يوما، وقيل سبعين يوما.[1]

التحليل المستقبلي للنص:

بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى وارتداد العرب، أصبح المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة، كما يصفهم ابن الأثير، وأشار بعض الصحابة على أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- بعدم إنفاذ جيش أسامة ورده إلى داخل المدينة. وكانت رؤيتهم مستقبلية ولكنها غير صحيحة، فقد كانوا يرون أن التدهور في أحوال العرب بعد وفاة النبي ﷺ لا يُؤْمَن معه إرسال هذا الجيش وترك المدينة من غير حراسة كافية وأن قوة المسلمين يجب أن تكون في تماسكهم وقوة جبهتهم الداخلية، وهي نظرية (استراتيجية) لها مكانتها في الفكر العسكري. وكانوا يرون أيضا أن إنفاذ هذا الجيش وفيه خيرة الجند والقواد هو تفريغ لقوة الدولة متمثلة في عاصمتها مدينة الرسول ﷺ وهذا ما يُسَمَّى في العصر الحديث بنقل الاحتياطي «الاستراتيجي» ودفعه إلى الأمام، وكثيرا ما أدى هذا إلى التفاف العدو وتمكنه من فتح الثغرات في الداخل.[2]

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ٢/ ٣٣٤- ٣٣٥، دار صادر بيروت ١٩٦٥م.
٢) يشبه هذا إلى حد كبير ما حدث فى حرب ١٩٧٣ عندما عبرت القوات المُكَلفة بالحراسة من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية للقناة وأعطى هذا للعدو الفرصة لكى يفتح الثغرة ويتسلل منها إلى خلف القوات المسلحة المصرية.

وشارك أسامة نفسه في هذا التوجه، إذ أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس لأن معه وجوه الناس وحدهم وأنه يخشى على الخليفة وعلى حرم رسول الله ﷺ. ولكن أبا بكر رفض هذا وذاك لأنه كان يعرف كيف يسد الثغرة التي يعولون عليها، وهي خلو المدينة من القوات التي تحميها، وذلك بالتجنيد والتدريب والاستعداد وهذا أمر يملكه الخليفة.

وكان الرأي المستقبلي الراجع عند أبي بكر هو أنه مع ارتداد العرب، واضطراب الأمور، فلا بد من إظهار قوة الدولة ورهبتها لأن الدولة بلا قوة مُظْهَرة لا تستطيع أن تسيطر على هذا التدهور العام وهذا ما استقر عليه الفكر «الاستراتيجي» الحديث وهو مبدأ «الهجوم خير وسيلة للدفاع».

وقد عُرف هذا المبدأ بأنه «مبدأ نابليون»، إلا أن القرآن الكريم الذي يغترف أبو بكر الصديق رضي الله عنه من نبعه الصافي سبق كل أصحاب الفكر العسكري «الاستراتيجي» ووضع هذا المبدأ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال ٥٦ – ٥٧).

فالآية تقول: طالما أن هناك قوما لا يحترمون العهود فإن ضربهم بشدة سوف يخيف أمثالهم ويمنع كثيرا من القتال، وهذا هو ما ذهب إليه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان لانفاذ هذا الجيش أثر بالغ في مستقبل المسلمين وإحكام سيطرتهم على جزيرة العرب كنقطة انطلاق نحو تكوين أمة الإسلام وسيطرتها على العالم المعمور، ولقد لاحظ ابن الأثير هذا البعد «الاستراتيجي» في فكر القائد أبي بكر، ولذلك عقب على هذا النص بقوله:

«وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه».[1]

وهذا تحليل دقيق للمؤرخ المسلم ابن الأثير، ويجب أن يُكتب التاريخ ويُقرأ على هذا النحو، ولقد أدرك الجميع بعد إنفاذ جيش أسامة ما لهذه النظرية من بعد في الزمان وشرف في المكان وعلو في المكانة.

والأثر الثاني لنظرة سيدنا أبي بكر المستقبلية، هو أنه بخروج كل القوات لملاقاة العدو في جيش أسامة وشعور سكان المدينة بالخوف من اضطراب العرب، فإن هذا الشعور بالخوف سيدفع قطاعات كبيرة من الشباب والشيوخ إلى سد هذه الثغرة في أمن المدينة. ومن هنا سيتكون تلقائيا جيش ثان، يملك نفس العقيدة ونفس الأمل في نشر دعوة الإسلام، وهي نظرة مستقبلية صائبة في كل أهدافها المرحلية والمستقبلية على السواء.

الخلاف على سن القائد:

وكان اعتراض من الأنصار على سن القائد أسامة بن زيد وأن يغيره بمن هو أقدم منه سنًا، ونقل ذلك سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- إلى سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه- فقال له: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله»!!

ولكن يبقى سؤال:

- هل رفض أبو بكر رضي الله تعالى عنه عزل أسامة لأن رسول الله ﷺ استعمله؟

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٣٦.

وهل هذا هو السبب؟

نعم: هذا هو السبب الظاهر، ولكن وراء هذا السبب سر يكشفه إصرار النبي ﷺ وإصرار أبي بكر على قيادة أسامة، وهذا السر والله تعالى أعلم هو شباب أسامة وحداثة سنه، لأن الشباب هو المستقبل، والأمة وقتها كانت متطلعة إلى المستقبل بكل كيانها، فهو يمثل المستقبل وينفذ خطة لتأمين مستقبل الإسلام.

وهذا التقليد الكريم لو أُتيح له التطبيق في بلاد الإسلام في العصور التالية لأنتج تقدما كبيرا في كل المجالات، ولكن ما حدث في عصور الانحسار هو غلق الباب في وجه الشباب بحجة أنهم لا يملكون الخبرة الكافية، وجعل العلم والمعرفة والقيادة حكرا على الشيوخ، وهذا النظام يدحضه إنفاذ جيش أسامة بن زيد، وهذا الفكر ليس إسلاميا- وإن ارتدى عباءة الإسلام- لأن إعطاء القيادة للشباب يفتح الأمل لهم في المستقبل ويبذلون كل جهد نحوه، والشباب بتكوينه يميل إلى الاقتحام والمجازفة وهما من عناصر التفوق الأولية.

تكريم العسكرية الإسلامية:

العسكرية الإسلامية هي التي رسخت سلطان الدولة في جزيرة العرب، ونشر سلطانها خارجها، ومع انتشار سلطان دولة الإسلام العادل انتشرت في ظله عقيدة الإسلام السمحة ولذلك أرسى لوداع جيش أسامة بن زيد، وهو ماشٍ على قدميه. وعن ذلك يقول ابن الأثير:

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش، وأسامة راكب: فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن: فقال: والله لا نزلت ولا أركب، وما عليّ لا أن أغبر قدمي ساعة في سبيل الله.

وهذا رفع لشأن الجهاد وبناء للعزة في نفس القائد الشاب حتى يستطيع أن يقود ويغزو باسم الله تعالى.[1]

تحطيم إرادة العدو والمحافظة على أخلاقيات الإسلام:

ليس معنى «الاستراتيجية» العسكرية إبادة العدو من المحاربين وغيرهم، ولكنها تتجلى في تحطيم إرادة العدو، والجيش الإسلامي لم يكن هدفه تدمير الحياة بل تطهير الحياة، ولذلك كان لا بد من أن يحارب هذا الجيش، ومع ذلك يترك أثرا يظهر شرف المقصد وطهارة المسلك وتكون هذه هي «المستقبلية» التي ستساعد على السيطرة والانتشار. ويتضح ذلك من قول أبي بكر- رضي الله تعالى عنه لجيش أسامة:

«لاتخونوا، ولا تغدروا ولا تغلو ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا او تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بقوم قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا. اندفعوا باسم الله سبحانه وتعالى».

فقتال المسلمين ليس لغرض الدين، وإنما هو للتخلية بين الناس، وبين عقيدة التوحيد الصحيحة، ولذلك أمرهم بأن يتركوا المتعبدين في صوامعهم فدعوهم

١) لم يعد لهذه التقاليد العزيزة وجود في كثير من المجتمعات الإسلامية، بل أصبح القائد الأعلى درجة لا يرضى ممن هو دونه بأقل من المهانة والصغار حتى يرضى عنه ويعتبره مواليا له، وقد تفشى هذا في كثير من القيادات العسكرية والمدنية على حد سواء، حتى وصل إلى المؤسسات الدينية نفسها التي يُعْتَبر التواضع شعارها الوحيد.

وما فرغوا أنفسهم له. ولكنه أمرهم أن يخفقوا رؤوس أولئك المستعدين للقتال بوضع العصائب فوق الرؤوس، وفي هذا النص ترى أن سيدنا أبا بكر يوطئ للإسلام مستقبلا كبيرا بهذه الأخلاقيات التي تراعي وقت الحرب ونزال العدو، ومن هنا كان إنفاذ جيش أسامة من أوله لآخره فكرا مستقبليا ثاقبا.

٢-حرب الردة:

كانت حروب الردة هي المشكلة الثانية التي واجهت سيدنا أبا بكر الصديق، ولم تكن مشكلة هينة كما يتصور البعض بل كانت تشبه انهيارا شديدا لنظام دولة الإسلام التي أسسها الرسول، ولكن هيهات فقد ترك ﷺ وراءه من يحمل منهجه ويسير به منهج التخطيط والرؤية البعيدة التي تتجاوز الزمان والمكان.

وتلك الرؤية المستقبلية لأبي بكر الصديق هي التي أنقذت المسلمين مما حل بهم من فتن سوف نطلع عليها بعد قليل. وقد كان رأي البعض القعود عن قتال المرتدين ولكنهم كانوا يجهلون ما يترتب على ذلك من قضاء على دولة الإسلام.

قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاما كدنا نهلك فيه لولا أن الله تعالى مَنّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على ألا نقاتل ابنة مخاض، وابنة لبون، وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. فعزم الله تعالى لأبي بكر على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية بأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قُتِل منا في الجنة، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم، وأن ما أخذوا منا مردود علينا وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم.[١]

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣٤٢.

في هذه الفقرة يبين لنا سيدنا عبد الله بن مسعود، رأيا كان سائدا عند البعض وهو القعود والتقوى ليقوم الرحمن بمهمة الإنسان، ولو ترك سيدنا أبو بكر الأمر للناس لتم القضاء على الأمة الإسلامية في بكورها، ولكنه نظر إلى المستقبل البعيد ورأى إعمال السيف في الناس حتى يفيئوا إلى أمر الله تعالى ويُذْعنوا لأحكام الإسلام ونظام الدولة الجديدة. ولذلك عرض عليهم الخطة المخزية أو الحرب المجلية، فلا مهادنة مع الذين ذاقوا حلاوة الإيمان ثم عادوا إلى مرتكس الكفر الأسن. لقد ظهرت الأحقاد على الإسلام بعد موت النبي ﷺ وأصبحت جزيرة العرب في اضطرام واحتدام.

أخبار الردة:

يقول ابن الأثير: لما مات النبي ﷺ وسيّر أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا، وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا واستغلظ أمر مسيلمة وطليحة واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدت غطفان تبعا لعيينة بن حصين فإنه قال: نبي من الحليفين يعني: أسد وغطفان، أحب إلينا من نبي من قريش، وقد مات محمد وطليحة حي فأتبعه وتعقبه غطفان، وقدمت رسل النبي ﷺ من اليمامة وأسد وغيرهما وقد مات النبي ﷺ فدفعوا كتبهم لأبي بكر وأخبروه الخبر عن مسيلمة وطليحة فقال: لا تبرحوا حتى تجئ رسل أمرائكم وغيرهم بأدهى مما وصفتم، فكان كذلك، وقدمت كتب أمراء النبي ﷺ من كل مكان بانتقاض العرب عامة وخاصة وتسلطهم على المسلمين.[1]

لقد تجيشت الجيوش بسرعة فائقة بعد وفاة النبي ﷺ وأخذت مواقعها للانقضاض على الاسلام، ولو سمع سيدنا أبو بكر من نظر إلى اللحظة الآنية،

١) المصدر السابق ص ٣٤٢- ٣٤٣.

ولم ينظر إلى المستقبل لانقض هؤلاء المرتدون على دولة الإسلام وأفنوها تماما. فقد «مات رسول الله ﷺ واجتمعت أسد وغطفان وطيء على طليحة، إلا ما كان من خواص أقوام في القبائل الثلاث فاجتمعت أسد بسميراء وفزارة ويليهم غطفان بجنوب طيبة، وطيء على حدود أرضهم، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالبرق من الربذة، وتأهب إليهم ناس من بني كنانة فلم تحملهم البلاد فافترقوا فرقتين فأقامت فرقة منهم بالأبرق وسارت الأخرى إلى ذي القصة من بني أسد ومن تأهب إليهم من ليث والديل ومدلج. وكان على مرة بالأبرق عوف بن فلان بن سنان وعلى ثعلبة وعبس الحارس بن فلان، وقد بعثوا وفودا فقدموا المدينة فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ما خلا عباسا فتحملوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وعلى ألا يؤتوا الزكاة، فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالا- حبلا- لجاهدتهم عليه. وكانت عقل الصدقة على أهل الصدفة مع الصدقة فردهم، فرجع وفد من يلي المدينة من المرتدة إليهم فأخبروا عشائرهم بقلة من أهل المدينة، وأطمعوهم فيها، وجعل أبو بكر- بعد ما خرج الوفد- على أنقاب المدينة نفرًا، وعليًا، والزبير، وطلحة، وعبدالله بن مسعود، وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد، وقال لهم: إن الأرض كافرة- أي مظلمة- وقد رأى وفدهم منكم قلة وأنكم لا تدرون أليلا تُؤْتَون أم نهارا، وأدناهم منكم على بريد. وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم وقد أبينا عليهم ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدوا وأعدوا. فما لبثوا إلا ثلاثا حتى طرقوا المدينة غارة مع الدليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم ردا، فوافق الغوار ليلا الأنقاب وعليها المقاتلة ودونهم أقوام يدرجون فنبهوهم، وأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر فأرسل إليهم أبو بكر أن الزموا أماكنهم، وخرج في أهل المسجد على النواضح إليهم، فانفش العدو- انهزم- فأتبعهم المسلمون على إبلهم حتى

بلغوا ذي حسى، فخرج عليهم الرّد بأنحاء قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال، ثم دهدهوها- دفعوها بأرجهلم في وجوه الإبل- فتدهده كل نحي في طوله فنفرت إبل المسلمين وهم عليها- ولا تنفر الإبل من شيء نفارها من الإنحاء- فعاجت بهم ما يملكونها، حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصرع مسلم، ولم يُصَب.[1]

- استطاع العلامة ابن جرير الطبري أن يضع المقدمات ويرتب عليها النتائج في هذا النص، فقد اتضحت الرؤية المستقبلية «الاستراتيجية» لأبي بكر، فهو كان يرى أن ترك المرتدين بدون قتال لن يصدهم عن هدفهم الأساسي وهو القضاء على دولة الإسلام.

وفي النص السابق اتضحت دقة ترتيبهم القائم على خطة محكمة لغزو المدينة وجيش أسامة غاب عنها. والجدير بالذكر أن سيدنا أبا بكر كان يقرأ المستقبل بوضوح ويتعامل معه بدقة وسرعة بالغتين، فبعد خروج الوفد من عنده- وبرغم عدم إعلان الحرب- جمع الناس في المسجد وأخبرهم أن العدو على مسافة بريد منهم- أي مسافة قريبة - ووضع الحراسة على المدينة من كل ناحية، وأخبرهم أن يعدوا ويستعدوا... وحدث ما تنبأ به في المستقبل ونجحت خطته في الدفاع عن المدينة التي وُضِعت للمستقبل.

ويلاحظ أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان يحرس ناحية من المدينة رغم أنه كان من الذين قالوا لا نقاتل على إبنة ليون ونقعد ونعبد ربنا حتى يأتينا اليقين، ولعله أدرك عمق النظرة المستقبلية لأبي بكر بعد أن هُوجِمت المدينة ليلا.

غير أن الصحابة كانوا يختلفون في الرأي ولكنهم يتفقون على الرؤية ولم يفعلوا كما نفعل الآن حين نقف مع وعند الموقف الفلسفي حتى نعتقده وحتى يمتزج

١) ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٢٤٣- ٢٤٤ ط دار المعارف، بدون تاريخ.

بدمائنا ويصبح صبغة لفكرنا ونكابر كل من يريد أن يزجرنا عنه. ولكن ابن مسعود- رضي الله عنه- لم يمنعه رأيه من أن يبصر ويرى ويحدد طريقه في ظل رأي ورؤية أبي بكر المستقبلية المنيرة.

رأي عمر بن الخطاب في حروب الردة:

كان لعمر بن الخطاب رأي يتعلق بقتال المرتدين وكان في رأيه هذا- رغم عدم قبول أبي بكر له- يرى أنه من دواعي تأمين المستقبل للإسلام ودولته الفتية يجب ترك قتال مانعي الزكاة حتى لا تقاتل الدولة نفسها وتقتل أبناءها وتترك العدو الخارجي وتتفرع للفتنة الداخلية.

وذهب إلى أبي بكر وقال له: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله وأن محمد رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله».

فقال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه» . فقال عمر بن الخطاب: «فوالله ، ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق».[1]

ويقول الأستاذ عباس العقاد عن رأي سيدنا عمر في حروب الردة:

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر، غير الذي رآه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وكان عمر خليقًا أن يرى ذلك الوجه الآخر، لأنه موافق لمجمل آرائه فى الحرب

١) انظر في ذلك تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وأبو بكر الصديق لمحمد حسين هيكل ص ٩٦.

والسياسة فقد كان بطيئًا إلى الحرب، كما عرفنا من عامة وصاياه وكان أبطأ ما يكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين وكان جيش الإسلام بعيدا عن المدينة فى غزوة الروم التي خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبي بكر بالخلافة، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته، ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف – أو هو في أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول.[1]

هذا ملخص رأي الأستاذ العقاد في رأي عمر رضي الله عنه تعالى فى حروب الردة، وهي نظرة للمستقبل لها دلالتها ورجحانها، ولكن رأيى أبي بكر كان أرجح لأنه كان ينظر أيضا إلى المستقبل من زاوية أخرى، هي زاوية هيبة الدولة، وقوتها بين خصومها الظاهرين، وغير الظاهرين.

يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل عن رأي أبي بكر رضي الله تعالى عنه: تُرَى ما كان عسى أن يؤول إليه أمر المسلمين لو أن أبا بكر قبل مشورة عمر وأصحابه في شأن الذين طلبوا منع الزكاة، ووادع هؤلاء الطالبين على ذلك؟ ولا أخالني في حاجة إلى أن أدلك على الجواب فأنت تعرفه كما أعرفه، كانت قبائل كثيرة من العرب إلى ذلك الوقت ما تزال قريبة العهد بالجاهلية والوثنية، فلو أن أبا بكر رضي النزول عن فرض من فروض الدين لاتصلت المساومات، ولوجد طليحة ومسيلمة وغيرهما من المتنبئين الوسيلة للتشكيك فيما جاء به النبي ﷺ من عند ربه، ثم لوجدوا من هذه القبائل القريبة العهد بالجاهلية مصدقًا لهم وطيعا، بل مؤمنا بهم يموت فى سبيلهم وينصرهم على دين الحق.

وأنت تستطيع أن تقدر ما كان لحزم أبي بكر ثم لانتصاره بذي القصة، من أثر حين نعلم أن المشركين من بني ذبيان وعبس وثبوا على من فيهم من المسلمين

١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢١٩، ٢٢٠.

فقتلوهم كل قتلة، هذه الظاهرة التي دفع إليها الغضب والشعور بالذلة، والانتقام الوضيع، قد زادت انتصار المسلمين جلالا وزادت المسلمين ثباتا على دينهم فى كل قبيلة، وجعلتهم يهرعون بالزكاة يؤدونها إلى خليفة رسول الله ﷺ، لقد رأوا أبا بكر يغلب هؤلاء المرتدين بقوة إيمانه في حين كان جيشه مع أسامة على تخوم الروم، فأيقنوا أن الغلبة لدين الحق والإيمان به، وأن الانتقام الوضيع الذى لجأت إليه القبائل لن يمحوا عنها عار هزيمتها، وأنها ستدفع ثمن هذا الانتقام غالبًا.

وكيف لهم أن يرتابوا وقد حلف أبو بكر ليقتلن فى كل قبيلة من المشركين بمن قتلوا من المسلمين وزيادة، وهو لا محالة فاعل متى عاد أسامة وآن لجيش المسلمين أن يأخذ هؤلاء الآثمين بذنوبهم.

هرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله إثر انتصاره بذي قصة، وكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفون والزبرقان من رؤساء بني تميم، وعدي بن حاتم الطائي عن قومه من بني طيء، واستقبل الناس هؤلاء السفراء عن عشائرهم في بشر أي بشر، وكان الناس يقول بعضهم لبعض إذا طلع أحدهم هذا نزير ، فيقول أبو بكر «بل هر بشير وهو حام ليس بوان» – ويجيب الناس أبا بكر يقولون: «طالما بشرت بالخير». (١)

هذه خلاصة النتاج التي ترتبت على نظرة أبي بكر المستقبلية لحروب الردة، ولا نعيب رأي عمر بن الخطاب، بل نقول إن الرأيين اجتهاد في رؤية المستقبل ترجحت منهما نظرة أبي بكر الصديق المستقبلية، فأذعن إليها عمر بن الخطاب

١) محمد حسين هيكل – الصديق أبو بكر ص ٩٩، ١٠٠ ط دار المعارف.

وساندها وانخرط جنديا شجاعا في صفوفها. وإلى هنا نكون قد تكلمنا عن أبرز علامات رؤية أبي بكر المذخورية وكيف أتت ثمارها في حينها وفي كل حين.[1]

عمر بن الخطاب - رضي اللّه تعالى عنه:

جاء سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه- ليكمل الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ وقام على تنفيذها، ثم جاء بعده سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فسار بالخطة فترةً من الزمن، ثم جاء عمر بن الخطاب ليسير على نفس المنهج، نهج التأسيس للمستقبل البعيد، ووضع أسس الدولة الإسلامية، والإمام السيوطي- رحمه الله تعالى- يجمل ما فعله سيدنا عمر في كل سنة من السنوات التي ظل فيها أميرًا للمؤمنين وحاكمًا أعلى للدولة فيقول: «ووُلي الخليفة بعهد من أبي بكر في جمادى الاخرة سنة ثلاث عشرة، فقام بالأمر أتم قيام، وكثرت الفتوح في أيامه.

ففي سنة أربع عشرة: فُتِحت دمشق ما بين صلح وعنوة، وحمص وبعلبك صلحا، والبصرة والأيكة كلاهما عنوة. وفي سنة خمس عشرة فُتِحت الأردن كلها عنوة إلا طبرية فإنها فُتِحت صلحا، وفي هذه السنة وقعة اليرموك والقادسية وفيها فرض عمر الفروض ودوَّن الدواوين وأعطى العطاء على السابقة.

وفي سنة ست عشرة فُتِحت الأهواز والمدائن وأقام بها سعد الجمعة في إيوان كسرى، وهي أول جمعة جُمِعت بالعراق وذلك في صفر، وكان فيها وقعة جلولاء وهُزم فيها يزدجرد بن كسرى وتقهقر إلى السرى، وفيها فُتِحت تكريت، وفيها

١) وهو في هذا يكمل خطة رسول الله ﷺ المستقبلية، فقد توجه بكل قلبه ورأيه وعزيمته إلى تنفيذ الخطة التي رسمها رسول الله ﷺ، تلك سياسته التي أعلنها يوم بويع وسار عليها إلى أن لقي ربه.

سار عمر ففتح بيت المقدس وخطب بالجابية خطبته المشهورة، وفيها فُتِحت قنسرين عنوة، وحلب وأنطاكية، ومنج صلحا، وسروج عنوة، وفيها فُتِحت قرقسيا صلحا.

وفي سنة سبع عشرة زاد عمر في المسجد النبوي وفيها كان القحط بالحجاز وفيها كان عام الرمادة، واستسقى عمر للناس بالعباس.

وفي سنة ثماني عشرة: فُتِحت جند يسابور صلحًا وحلوان عنوة، وفيها كان طاعون عمواس، وفيها فُتِحت الرها وسميساط عنوة، وحران ونصيبين، وطائفة من الجزيرة عنوة- وقيل صلحا- والموصل ونواحيها عنوة.

وفي سنة تسع عشرة: فتحت قيسارية عنوة.

وفي سنة عشرين: فُتِحت مصر عنوة، وقيل مصر كلها صلحا إلا الإسكندرية فعنوة. وقال علي بن رباح: المغرب كله عنوة.

وفيها فُتِحت تستر، وفيها هلك قيصر عظيم الروم، وفيها أجلى عمر اليهود عن خيبر وعن نجران، وقسم خيبر ووادي القرى.

وفي سنة إحدى وعشرين: فُتِحت الإسكندرية عنوة ونهاوند، ولم يكن للأعاجم بعدها جماعة، وبرقة وغيرها.

وفي سنة اثنتين وعشرين: فُتِحت أذربيجان عنوة وقيل صلحا، والدينور عنوة، وما سبذان عنوة، وهذان عنوة وطرابلس المغرب، والري، وعسكر وقومش.

وفي سنة ثلاث وعشرين: كان فتح كرمان وسجستان وكران من بلاد الجبل، وأصبهان ونواحيها. وفي آخرها كان وفاة سيدنا عمر بن الخطاب- رضي الله تعالى عنه ورحمه رحمة واسعة.(١)

في هذا العرض السريع بين لنا الإمام السيوطي كيف كان عمر بن الخطاب يوسع في دولة الإسلام لينفذ خطة رسول الله ﷺ المستقبلية، ولم تمض سنة كما رأينا، إلا وفتح فيها بلادا كثيرة في قارات متعددة.

وإذا كان الإمام السيوطي يسرد هذه الاشياء على أنها تاريخ تُؤْخذ منه العبرة، فإن الأستاذ عباس العقاد يرى أن ذلك كان تأسيسا لدولة الإسلام لضمان مستقبلها البعيد.

رأي الأستاذ عباس محمود العقاد:

يعلق العقاد على أعمال عمر بن الخطاب المستقبلية «الاستراتجية»، فيقول:

تأسست الدولة الإسلامية في خلافة أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- لأنه وطد العقيدة وسير البعوث فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب ما صنعه في حرب الرد، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث، وفتح الفتوح فكان له السبق على خلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمي عمر مؤسسا للدولة الإسلامية بمعنى آخر، غير معنى السبق في أعمال الخلافة لأننا «أولا» لا نجد مكانا في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظيمة.

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ١٣١ و ١٣٣ ط مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٢م.

ولأننا من وجهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام، وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسسا لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها.

وكان مؤسسا لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير، ودعامة الدعائم.

إن أبا بكر- رضي الله تعالى عنه- أسس، ولم يتسع له الأجل، حتى يفرغ من عمله. وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هي آية الآيات فيه وفي ذلك العصر من البداوة البادية.

وبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يُقْتَوُّن به، ويلازمه ويُعَد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد، وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طُبِع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها. وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع أي القرآن.

وندر في الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه، فافتتح تاريخا واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتب لها الدواوين ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل أجزاءها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شيء في

الوقت الذي ينبغي أن يصنع فيه وملاك النظم الحكومية كلها نظام الثوري الذي أقامه عمر على أحسن ما يُقَام في زمانه.

وجعل موسم الحج موسما عاما للمراجعة والمحاسبة، واستطلاع الآراء في أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.[1]

في النص السابق تتضح المستقبلية عند عمر بن الخطاب وكيف أنه وضع الأساس المتين والمستمر للدولة الإسلامية حتى تسود وتقود، والحقيقة أنه كان رضي الله تعالى عنه يعي المستقبل تماما ويخطط له بحكمة وبدقة وكان لا يترك شيئا يجب أن يفعل للمستقبل إلا فعله.[2]

ولم يتركه للظروف والأقدار، كما يفعل المسلمون الآن حين يتركون التدبير للمستقبل بحجة أن المستقبل بيد الله سبحانه وتعالى.

١) عباس محمود العقاد: عبقرية عمر- ص ١٢٧- ١٢٩، ط وزارة التعليم ١٩٦٩م.
٢) في هذا البحث، يتم رصد التوجه المستقبلي (الاستراتيجي) فقط، أما من أراد أن يستزيد فعليه الرجوع إلى كتب التاريخ والعزوات ليبصر الخطط في كل غزة على حدة.

وقفة مع جمع القرآن الكريم

أردت من هذه الوقفة أن أظهر منهاج سيدنا عمر بن الخطاب الاستراتيجي في توجهه للمستقبل من غير أن يجعل من النصوص الدينية مانعا لحركته وعقلا لعقله.

لقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حفظة للقرآن الكريم يسقطون في حروب الردة، وأدرك أن القرآن الكريم يجب أن يُجْمع لأنه دستور الأمة ومحور حركتها وقوام أمرها، وأنه لو تداعت الحروب وسقط الحفظة وضاع القرآن الكريم فإن الأمة ستضيع تبعا له ولن يبقى لها أثر.

ويبقى سؤال: كيف خطط عمر بن الخطاب لجمع القرآن الكريم ووافقه الخليفة أبو بكر وباقي الصحابة على ذلك؟ وهم يعلمون أن هذا مستقبل، وأن القرآن الكريم أشار الحق تعالى فيه إلى حفظه إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر: ٩).

فكيف يحاولون ضمان شيء ضمنه الله تعالى؟ إن المسلم الآن يترك عمله الخاص من غير إتقان بحجة أن الأمور كلها بيد الله تعالى، فلماذا لم يفعل عمر بن الخطاب مثل هذا؟ لا شك أنهم كانوا يدركون هيمنة الله تعالى على كل شيء ولا يمنعهم ذلك الإدراك من أداء رسالتهم الإنسانية والقيام بدورهم البشري، ولذلك كانت لهم السيادة والقيادة.

ونكتفي بهذه اللمحة السريعة عن المستقبلية عند سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

عثمان بن عفان- رضي الله تعالى عنه:

يتحدث التاريخ بكثرة المشاكل والخلافات التي حدثت في عهد سيدنا عثمان بن عفان- رضي الله تعالى عنه- ومع كثرة المشاكل، إن صحت رواية المؤرخين، فإن سيدنا عثمان ومعه الصحابه لم يتركوا العمل للمستقبل لتنفيذ خطة رسول الله ﷺ أن يعم الإسلام العالم كله، وبعمومه يعم الخير ويُكَرم الإنسان.

ويحدثنا الإمام السيوطي في كتابه الطيب تاريخ الخلفاء عن الفتوح والغزوات التي تمت في عهد سيدنا عثمان بن عفان بما يؤكد تأصيل فكرة المستقبلية عنده وعند المسلمين في عهده، فيقول عن أول سنة في خلافته الرشيدة:

وفي هذه السنة من خلافته- فُتِحت الري- وكانت فُتِحت وانتقضت، وفيها فتح من الروم حصون كثيرة، وفيها ولي عثمان الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعزل المغيرة.

وفي سنة ست وعشرين: زاد عثمان في المسجد الحرام ووسعه واشترى أماكن للزيادة.[1]

وفي هذه السنة فُتِحت سابور.

وفي سنة سبع وعشرين: غزا معاوية بن أبي سفيان قبرس «قبرص» فركب البحر بالجيوش، وكان معهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان

١) العزوات وفتح البلاد عمل استراتيجي لا شك فيه، بحسب ما يؤول إليه الحال، أو قل إنها أهداف مرحلية، تحقق بمجموعها الهدف الاستراتيجي العام، لكن الزيادة في المسجد الحرام وشراء أراض حوله للزيادة فيه في المستقبل، تؤكد تأصل فكرة المستقبلية في الجانب المدني كما في الجانب العسكري، وتؤكد أن المستقبلية عند الصحابة رضي الله عنهم كانت نسيج الحياة.

الأنصارية فسقطت عن دابتها فماتت شهيدة هناك. وكان النبي ﷺ أخبرها بهذا الجيش ودعا لها بأن تكون منهم فدُفِنت بقبرص، وفي هذه السنة فُتِحت أرجان وداربجرد، وفيها عزل عثمان عمرو بن العاص عن مصر وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح فغزا إفريقية وافتتحها سهلا وجبلا، فأصاب كل إنسان من الجيش ألف دينار وقبل ثلاثة آلاف دينار، **ثم فُتِحت الأندلس في هذا العام.**

وفي سنة تسع وعشرين: فُتِحت اصطخر عنوة وفسادة وغير ذلك.[1]

وفيها زاد عثمان في مسجد المدينة ووسعه، وبناه بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة، وسقفه بالساج، وجعل طوله ستين ومائة ذراع، وعرضه خمسين ومائة ذراع.

وفي سنة ثلاثين: فُتِحت جور، وبلاد كثيرة من أرض خراسان وفتحت نيسابور صلحا، وقيل عنوة وطوس، وسرخس كلاهما صلحا، وكذا مرو، وبيهق، ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر الخراج على عثمان.

وأتاه المال من كل وجهة حتى اتخذ له الخزائن[1] وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بألف بدرة في كل بدرة أربعة آلاف أوقية.

---

١) بهذه العبارة الموجزة- أهمل الإمام السيوطي الكثير من بطولات المسلمين وكدحهم للمستقبل، ويرى الإمام الطبري أنه بجانب فتح أصطخر، وفسادة، فإنه تم فتح فارس، وافتتحها عبدالله بن عامر- أنظر تاريخ الطبري: ٤/ ٢٦٧ط دار المعارف.

٢) في هذه القفرة تظهر ثمار المستقبلية، فهذه الأموال التي جاءت من كل مكان إنما جاءت نتيجة سلسلة من الغزوات التي بذل فيها الكثير من العرق والدماء والأرواح لنشر الدين الإسلامي والعدل الإسلامي والحكم الإسلامي، وكل ذلك سيؤدي بالتبعية إلى مجيئ الأموال من كل حدب وصوب لتعم السعادة بلاد الإسلام والبلاد المفتوحة على حد سواء. ولا بد من التأكيد على أن جمع المال لم يكن من أهداف الغزو ولكنه جاء تبعا له، فلا يوجد في العالم دولة فقيرة مسيطرة ولا دولة مسيطرة فقيرة.

وفي سنة ثلاث وثلاثين: غزا عبد الله بن أبي سرح الحبشة.

وفي سنة خمس وثلاثين: كان مقتل عثمان.

ويُذْكَر لسيدنا عثمان أنه أمر معاوية بن أبي سفيان فغزا قبرص، وركب البحر، لتعبر الدعوة الإسلامية البحر وتتجه نحو العالمية.

يقول الإمام السيوطي :

كان معاوية يلح على عمر بن الخطاب في غزوه قبرص وركوب البحر لها، فكتب إلى عمرو بن العاص، أن صف لي البحر وراكبه، فكتب إليه «إني رأيت خلقا كثيرا يركبه خلق صغير، إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أراع العقول، تزداد في العقول قلة والسيئات كثرة، وهم فيه كدود على عدو، إن مال غرق وإن نجا فرق». فلما قرأ عمر بن الخطاب الكتاب كتب إلى معاوية: «والله لا أحمل فيه مسلما أبدا». قال ابن جرير: فغزا معاوية قبرص في أيام عثمان فصالحه أهلها على الجزية».[1]

إن صحت هذه الرواية في توقف سيدنا عمر بن الخطاب عن غزو البحر خوفا على المسلمين وإقدام سيدنا عثمان بن عفان على ذلك، تكون هذه الفقرة خير ختام للمستقبلية عند سيدنا عثمان بن عفان، لأن غزو قبرص كان مرحلة من مراحل نشر الإسلام في أوروبا انطلاقا من هذه الجزيرة وكانت خطوة مرحلية لا بد منها، وهي نظرة كبيرة إلى المستقبل البعيد. لكن يجب أن لا نعالج هذا النص بمفهوم إلمام السيوطي ومن نقل عنهم من المؤرخين، لأن المستقبلية كانت هي القاسم المشترك عند الصحابة (رضي الله تعالى عنهم) على اختلاف

١) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ١٥٤ وما بعدها.

مشاربهم وتفاوت قدراتهم في القيادة. ولم يكن ليغيب عن حاضر مؤسس الدولة الاسلامية عمر بن الخطاب على أساس الرسول ﷺ وأبي بكر، وأن غزو قبرص فيه نقل لنور الدعوة الإسلامية من مرحلتها المحلية إلى مرحلتها العالمية. لكن عمر، لم يخف من ركوب البحر كما تقول كتب التاريخ، وإنما كانت لديه أولويات وأهداف مرحلية تسبق هذا الهدف العظيم ولا بد أن يترتب عليها.

ولما جاء سيدنا عثمان بن عفان نظر إلى رقعة الدولة الإسلامية على خريطة الواقع فوجدها ما زالت دون ما يراه لها في المستقبل فقرر غزو قبرص والانطلاق منها لما بعدها.

وعلى هذا لا يكون هناك خلاف في الرؤية المستقبلية بين سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا عمر بن الخطاب ويكون لكل منهما التي تكمل المستقبلية عند الآخر، لأنهم كانوا ينظرون إلى دورهم في دفع عجلة الإسلام والتأسيس لدولته على أن كل دور من هذه الأدوار دائرة تدور وتتلاشى ليتكون من هذه الدوائر المتلاشية والباقية في آن واحد دائرة الإسلام الكبرى والأبقى.

ولو سلمنا مع الطبري بوجود خلاف في الرؤية بين سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا عثمان بن عفان فإنه لا يعدو أن يكون خلافا على أولويات كل مرحلة وليس على أهداف المستقبلية.

والنظر للتاريخ الإسلامي من هذه النافذة يجعله نسقا واحدًا يسير حسب مراد الله- سبحانه وتعالى- لهذه الأمة المُخْرَجة للناس.

علي بن أبي طالب- رضي الله تعالى عنه:

تولى سيدنا علي بن أبي طالب الخلافة والفتن تحيط بالدولة الإسلامية من كل جانب، ولعل معظمها كان من صناعة بعض الحاقدين على دولة الإسلام، والمنافقين الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وفي فترة خلافته وما تلاها من سنين أو بالتحديد من سنة خمس وثلاثين إلى السنة التي تولى فيها معاوية الخلافة أو انفرد بها، وليس معنى هذا أن الغزو توقف وأن العمل للمستقبل توقف، ولكن المؤرخ- خاصة العربي- يميل إلى ذكر الأحاديث التي تُغَلف بالقصص وتكون مادة لتسلية من يقرأ تاريخه، ومع هذا فلن نعدم أن نجد في حياة سيدنا الإمام علي ما يؤكد احتفاءه بالمستقبلية.

كانت أول مشكلة عُرضت على سيدنا علي بن أبي طالب بعد توليه الخلافة هي القصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وكان تصرفه فيها ينم عن رؤيته المستقبلية الواضحة.

يقول ابن جرير الطبري:

واجتمع إلى عليّ بعد ما دخل إلى بيته طلحة والزبير في عدة من الصحابة فقالوا: يا عليّ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم، فقال هم: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا للقدرة على شيء مما تريدون؟

قالوا: لا... قال: فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط، فيبرح الأرض من أخذ بها أبدا إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور، فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتُؤْخَذ الحقوق فاهدؤوا عني، وانظروا إلى ما يأتيكم وعودوا.[1]

إن من يريد أن يقف على المستقبلية في هذا النص فعليه أن يرجع إلى الظروف والملابسات ويدرس الأحوال التي قيل فيها هذا النص، لقد قُتِل عثمان بن عفان فيما يشبه الثورة، اجتمع للقادمين من الأمصار، الأاعراب والعبيد الأعراب من حول المدينة والعبيد من داخل المدينة وأحكموا السيطرة على المدينة، وقتلوا الخليفة، وأصبح كبار الصحابة لا يملكون من أمرهم شيئا، فعبيدهم جيش معاون للقادمين الثائرين، والأعراب وهم مدد المدينة قد انضموا إلى الثوار، ومع ذلك جاءوا إلى سيدنا علي يطالبونه بالقصاص، فحدثهم حديث من ليس يقرأ المستقبل فحسب بل حديث الخبير به أيضا. فقال لهم: كيف أفرض القصاص عليهم وهم يملكوننا ولا نملكهم؟ وهذه قاعدة صحيحة أن من يحكم لا بد أن يملك. وفي نفس الوقت أخبرهم أن الرأي العام في المدينة لم يتفق بعد على شيء محدد. إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا.

فهذه رؤية نافذة إلى المستقبل، ترتب أحداثه ترتيبا طبيعيا. ولو أُتِيح لسيدنا علي بن أبي طالب نظاا مستقر في خلافته، لأسدى لدولة الإسلام أكبر الانجازات في مستقبلها من خلال وعيه المستقبلي السديد، ولكنه حاول أن يسبح بمركبه في بحر من الفتن فلم يصل إلى شاطئه الذي كان يراه من بعيد.

١) ابن جرير الطبري: تاريخ الطبري- ٤/ ٤٣٧.

وإذا كانت هذه الفتن قد ألهت المسلمين عن الغزو أو ألهت كتاب التاريخ عن تسجيل ذلك، فإننا نلحظ رؤية مستقبلية أخرى للإمام علي بن أبي طالب في نظرته للضرائب التي تُجْبَي من الناس، فقد نظر إليها نظرة مستقبلية فرأى أنها يجب أن تُؤَدَّي إلى عمارة الأرض لا إلى خرابها فكان يكتب إلى الوالي من عماله:

تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله. وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره الا قليلا وإنما يُؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة في الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.[1]

في الفقرة السابقة رؤية مستقبلية في الاقتصاد لأنه رضي الله تعالى عنه ينظر إلى عمارة الأرض التي سيترتب عليها تدفق الخراج، ولا ينظر إلى كمية الخراج نفسها ويقول:

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج».

وهذا ما يُسَمى في عصرنا الحاضر بالاستثمار للمستقبل. وفي كلماته القليلة لعماله أساس للتخطيط المستقبلي في حقل الاقتصاد وعمارة الأرض، ويلحظ هذا التخطيط كل باحث عن المستقبلية من غير عناء ولا مشقة.

١) عبقرية علي: عباس محمود العقاد. ص ٢٢، وانظر أيضا نهج البلاغة.

معاوية بن أبي سفيان- رضي الله تعالى عنه:

وعلى درب الصحابة الكرام يسير سيدنا معاوية بن أبي سفيان في فتح البلاد وإفساح رقعة الدولة الإسلامية ومد سلطانها في كل الاتجاهات، وبقي عشرين سنة لا ينازعه أحد. فقد وُلِّي الخلافة بعد أن تنازل له الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما [1] في سنة إحدى وأربعين، وظل يغزو ويفتح طوال هذه المدة.

ففي سنة ثلاث وأربعين، فُتِحت الخرج وغيرها من بلاد سجستان وودان من برقة، وكور من بلاد السودان.

وفي سنة خمس وأربعين: فُتِحت القيقان.

وفي سنة خمسين: فُتِحت قوهسان عنوة، وفيها دعا معاوية أهل الشام إلى البيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد.[2]

وعلى هذه السنة سار الخلفاء من بعد معاوية، لأن بناء المستقبل وتأمين الحاضر للمسلمين كان من أهم أدوار الحكام المسلمين في عصور التفوق الإسلامي. ولكن من يطالع التاريخ الإسلامي يجده يركز على الخلافات التي نشبت بين من يريدون الحكم أو الاستيلاء على السلطة، ويجب ألا يُنْظر إلى التاريخ الإسلامي على أن ما فيه مسلمات، لأن كُتَّاب التاريخ كانوا ينتمون إلى كل التيارات المتصارعة وحاولت كل طائفة منهم تشويه تاريخ الطائفة الأخرى وإلصاق العجز بها، لكن من يراجع تقدم الدولة الإسلامية في كل المجالات من منظور المذخورية ويتفحص الحضارة الإسلامية يعلم أن هذه الخلافات كانت محدودة وأن بناء

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ.
٢) الإمام السيوطي: تاريخ الخلفاء- ص ٢٠٠.

الدولة الإسلامية لم يتوقف إلا قليلا، ويجب أن يُدْرس التاريخ الإسلامي من خلال الإفراز الحضاري للدولة الإسلامية لأن كثيرا من الأخطاء في التاريخ تأخذ مصداقيتها من أقدميتها أو من زمانيتها، تُرى في صفحات التاريخ أحكاما مرتجلة يتلقفها فم من فم ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة مفروغا من بحثها والاستدلال عليها وهي في الواقع لم تُعْرض قط على البحث والاستدلال ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال. (١)

ولو اتسع المجال لسردنا هنا كيف أسس الأوائل دولة الإسلام على قاعدة التخطيط الدقيق والأعمال الهادفة، ولكن هذه الدراسة تركز على إثبات المستقبلية عند المسلمين ولا نركز على استقصائها،- فحسب المرء أن يخرج من مراجعة هذه الدراسة وهو يعتقد بأن التخطيط والنظر للمستقبل البعيد جزء من عقيدة المسلمين في خلافتهم لله تعالى في الأرض، وليس في هذا التخطيط نقص في الإيمان، أو وهن في العقيدة.

١) الأستاذ عباس محمود العقاد: عبقرية عليّ- ص ٩٠، ط دار المعارف.